﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة: 186]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الـرّبـط بين الصّيام والدّعاء المـنـيـب، وبـين الـوصـل بـالـربّ القريب المجيب

لَمَّا ذكر الله ﷻ فريضة الصّيام، وذكر معها الذّكر والتّكبير والشّكر، أعقب ذلك بِذِكْرِ قُرْبِهِ تعالى من عباده، واستجابته لدعائهم؛ ليكون كالجزاء لاجتهادهم في الطّاعات، ولنا أن نتساءل: "كيف فصل بين الآية الأولى، وبين الّتي بعد هذه، وهما في حكم رمضان بهذه الآي، وهي قد اختلفت عنهما؟ قيل: بل هي من تمام الآية الأولى؛ لأنّه لما حثّ على تكبيره وشكره على ما قيّضه لهم من إتمام الصّوم؛ بيّن أنّ الّذي تذكرونه، وتشكرونه، قريبٌ منكم، ومجيبٌ لكم، إذا دعوتموه، ثمّ تمّم ما بقي من أحكام الصّوم"[1]، "ولَمَّا أمرهم الله تعالى بصوم الشّهر، ومراعاة العِدّةِ، وحثَّهم على القيَام بوظائف التّكبير، عقّبه بهذه الآيةِ الكريمةِ، الدّالة على أنّه تعالى خبيرٌ بأحوالهم، سميعٌ لأقوالهم، مجيبٌ لدعائهم، مجازيهم على أعمالهم، تأكيدًا له وحثًّا عليه"[2]، " وَخلاصةُ مُنَاسَبَةِ هَذِهِ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا: أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا تَضَمَّنَ قَوْلُهُ: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ طَلَبَ تَكْبِيرِه وَشُكْرِه؛ بَيَّنَ أَنَّهُ مُطَّلِعٌ عَلَى ذِكْرِ مَنْ ذَكَرَهُ، وَشُكْرِ مَنْ شَكَرَهُ، يَسْمَعُ نِدَاءَهُ، وَيُجِيبُ دُعَاءَهُ، ويلبّي له رغبته، تَنْبِيهًا عَلَى أَنْ يَكُونَ مَسْبُوقًا بِالثَّنَاءِ الْجَمِيلِ"[3].

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/395.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/201.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/205.

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي﴾: أي: فليجيبوني بالطّاعة وتصديق الرّسل، وأجاب واستجاب، بمعنى[1]: الإجابة من العبد لله تعالى: الطّاعة، وإجابة كلِّ شيء على وفق السّؤال، والله تعالى تَعَبَّدَنا بالطّاعة، فالإجابة منّا له أن نطيعه، يقال: سأل فلان فلانًا شيئًا، فلم يكن له عنده إجابة، أي: إعطاء؛ لأنّ سؤاله كان استعطاءً، ويقال: أجابت السّماء بالمطر، إذا أرسلت المطر، وأجابت الأرضُ بالنّبات إذا أنبتت[2]. وقوله ﷻ: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي﴾، أي: فليُجِيبُوني، قال الشّاعر:

وَدَاعٍ دَعَا يَا مَنْ يُجِيبُ إِلَى النَّدى *** فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عِنْدَ ذَاكَ مُجِيبُ

فَقُلْتُ ادْعُ أُخْرَى وَارْفَعِ الصَّوْتَ عَالِيًا *** لَعَلَّ أَبِي الْمِغْوَارِ مِنْكَ قَرِيبُ[3]

وتحقيق اللّفظ عند أهل العلم: فليستدعوا الإجابة، كما يقال: (اسْتَنْصَرَ)، إذا استدْعى النّصر، وعن أبي رجاء الخراسانيّ أنّه قال: "﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي﴾ فليدّعوني. وقيل: هو التّلبية.

2) ﴿يَرْشُدُونَ﴾: (رَشَدَ) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى اسْتِقَامَةِ الطَّرِيقِ، وَالرُّشْدُ وَالرَّشَدُ: خِلَافُ الْغَيِّ[4]، والرشد: الهداية، والغَيُّ: الضّلال، قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾، أي: يهتدون، وبيَّن الرّشد في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: 51][5]، والمعنى: أنّهم إذا استجابوا لله وآمنوا به، كانوا على رجاء من حصول الرّشد لهم، وهو الاهتداء لمصالح دينهم ودنياهم[6].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

"وإذا سألك -أيّها النّبيُّ ﷺ- عبادي عنّي، فقل لهم: إنّي قريب منهم، أُجيب دعوة

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/174.

(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 3/594-595.

(3) البيتان لكعب بن سعد الغنويّ من قصيدة يرثي بها أخاه أبا المغوار، وهي مذكورة في الأصمعيّات، ص: 96، وذكر البيت الأوّل الزّجّاج في معاني القرآن وإعرابه: 1/255، وكذلك محمّد شرّاب، شرح الشّواهد الشّعريّة في أمّات الكتب النّحويّة: 1/127.

(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رشد)

(5) السّمين، عمدة الحفّاظ: (رشد)

(6) أبو حيّان، البحر المحيط في التّفسير: 2/210.

الدّاعي؛ إذا دعاني، فليطيعوني فيما أمرتهم به، ونهيتهم عنه، وليؤمنوا بي، لعلهم يهتدون إلى مصالح دينهم ودنياهم، وفي هذه الآية إخبار منه سبحانه، عن قربه من عباده، القرب اللّائق بجلاله"[1].

"وَفِي هَذِهِ الآيَةِ إِيمَاءٌ إِلَى أَنَّ الصَّائِمَ مَرْجُوُّ الْإِجَابَةِ، وَإِلَى أَنَّ شَهْرَ رَمَضَانَ مَرْجُوَّةٌ دَعَوَاتُهُ، وَإِلَى مَشْرُوعِيَّةِ الدُّعَاء، كما أنّ "الرّشد والرّشاد، ضدّ الغيّ والفساد، فعلّمنا أنّ الأعمال، إذا لم تكن صادرة بروح الإيمان، لا يرجى أن يكون صاحبُها راشدًا مهديًا، فمن يصوم اتّباعًا للعادة، وموافقةً للمعاشَرين؛ فإنَّ الصِّيام لا يعدّه للتّقوى ولا للرّشاد، وربّما زاده فسادًا في الأخلاق وضراوة بالشّهوات؛ لذلك يذكّرنا تعالى في أثناء سرد الأحكام، بأنّ الإيمان هو المقصود الأوّل في إصلاح النّفوس، وإنّما نفعُ الأعمال في صدورها عنه، وتمكينها إيّاه"[2]، وحينها يكون الدّعاء مجابًا، وينعكس الصّيام على قوّة الوصل بالله المفضية إلى القبول والقرب من الله الكريم المجيب.

❁ الإيْضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دِلَالَةُ تَعْلِيقِ الْفِعْلِ بِأَدَاةِ الشَّرْطِ ﴿وَإِذَا﴾:

سُمُوُّ هِمَمِ الْعِبَادِ إِلَى التَّعَرُّفِ عَلَى رَبِّهِمْ ﷻ

في قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى﴾ نظمٌ عجيبٌ دالٌّ على كلّيّة الحكم؛ وذلك بإخراجِ الكلام في صورة الحكم الكلّيِّ؛ فإنَّه قد جاء بحكم عامٍّ مسوقٍ في سياق الشَّرط؛ فقال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى﴾، وقال: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ﴾، وَلَوْ جاء نظمُ الآية: (وَلْيَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُمْ)؛ لكان مختصًّا بهم، فكان من جملة الأحكام الجزئيَّة[3]، قال الحرالِّيُّ: "﴿وَإِذَا﴾ عطفًا على أمور متجاورة، كأنّه يقول: إذا خرجت من معتكفك فصلّيت، وظهرت زينة الله الّتي باهى بها ملائكته، ليست زينة الدّنيا الّتي يتمقّتها أهل حضرته من ملائكته، فإذا سألك مَن حاله كذا؛ فأنبئه بكذا،

(1) نخبة من العلماء، التّفسير الميسّر: ص: 28.
(2) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 2/139.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/178- 179.

وإذا سألك مَن حاله كذا؛ فأنبئه بكذا، وإذا سألك مَن حاله كذا؛ فأنبئه بكذا، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾، أي: هل أنا على حال المتكبّرين من ملوك الدّنيا، في البُعد عمّن دونهم، فأخبرهم أنّي لست كذلك؟ ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾"[1].

فأفادَ تعليق الفعل بالشَّرط ﴿إِذَا﴾ فائدتين:

إحداهما: تعميم الحكم - كما سبق -؛ فإنَّ أدواتِ الشَّرطِ من جملة الطَّرائق التي يُستفادُ منها عموم الخطاب.

والأخرى: الدّلالةُ على تحقُّقِ السُّؤالِ، فإنَّ (إذَا) دالَّةٌ في أصل وضعها على الجزم بوقوعِ مدخولهَا، فالسُّؤالِ عن اللّه تعالى واقع من العبادِ لا محالة؛ لأنَّ الخلق مجبولونَ على معرفة خالقهم ﷻ بطريق الإجمالِ، فتسمو نفوسهم إلى التَّعرُّفِ على تفاصيلِ صفاتِهِ وأسمائه وأفعالِهِ؛ فإنَّه سبحانه أعَزُّ مطلوبٍ وأشرفُ معلومٍ.

تَعْيِينُ مَرْجِعِ الضّمِيرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ﴾:

رَفْعُ مَنْزِلَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَتَشْرِيفُهُ

الخِطَابُ في قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ﴾ لِلنَّبِيِّ ﷺ)، وَإن لَمْ يتقدَّمْ لَهُ ذِكْرٌ صريحٌ؛ فإنَّ له ذِكْرًا بطريقِ الكنايةِ قبلُ، وذلك في قَوْلِهِ تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾؛ فإنَّ الذي أُنْزِل عليه القرآن هو رَسُولُ اللّهِ ﷺ، "فَكَأَنَّهُ قِيلَ: أُنْزِلَ عَلَيْكَ فِيهِ الْقُرْآنُ، فَجَاءَ هَذَا الْخِطَابُ مُنَاسِبًا لِهَذَا الْمَحْذُوفِ"[2].

وفي تخصيص الخطابِ به تشريفٌ ورفعٌ لمنزلَتِه[3]، "حيث خوطب المسلمون جميعًا في الآيتين السّابقتين، فيما يتعلّق بأحكام الصّوم، كقوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾. وقوله تعالى: ﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾﴾، وفي الآية التي بعدها يقول تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ إلى قوله

(1) تراث أبي الحسن الْحَرَالِيّ المراكشّي في التّفسير، ص: 348.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/205.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/200.

تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ بعد هذا الخطاب للمسلمين يأتي خطاب خاصٌّ لمحمّد ﷺ، فيقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾، وهذا التّلوين في الخطاب فيه تشريف وتكريم لمحمّد رسول الله ونبيّه ﷺ، وللأمّة الإسلاميّة"[1]، فأمَّا تشريفُه ﷺ فظاهرٌ، وأمَّا تشريفُ الأمَّةِ؛ فتبَعٌ لتشريفِهِ ﷺ؛ إذْ هو قائدُ الأمَّةِ وإمامُهَا.

نُكْتَةُ الْإِضَافَةِ وَالْحَذْفِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾:

شَرَفُ الْإِنْسَانِ بِعُبُودِيَّتِهِ للهِ تَعَالَى

في إضافة العبادِ إلى الضَّمير الراجع إلى الله تعالى في قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾ تشريف وتكريم[2]، والتَّشريفُ عائدٌ إلى المضافِ لا إلى المضافِ إليه؛ إذِ العبادُ يتشرَّفُون بكونِهم عبادًا لله تعالى.

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾ محذوفٌ، تقديره: إذا سألك عبادي عن قُربي وبُعدي، بدليلِ الجوابِ، ففيه إيجازٌ بالحذف[3]؛ إذْ حُذِفَ المضاف وأقيم المضاف إليه مقامَهُ؛ لأنَّ السُّؤالَ عن صفةٍ من صفاتِ الله تعالى أو فعلٍ من أفعالِهِ هو سؤالٌ عنه سبحانه.

نُكْتَةِ الْمَجَازِ الْمُرْسَلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿عِبَادِي﴾:

الْغَالِبُ فِي الاسْتِعْمَالِ الْقُرْآنِيِّ اخْتِصَاصُ لَفْظِ (الْعِبَادِ) الْمُضَافِ إِلَى ضَمِيرِ الْجَلَالَةِ بِأَهْلِ الْإِيمَانِ

إضافة العبادِ إلى الضَّمير الرَّاجع إلى الله تعالى – مع دِلالتِهِ على التَّشريفِ – يدلُّ بظاهره على العموم؛ إلَّا أنَّ المقصودَ به الخصوصُ؛ إمَّا على إرادةِ اليهودِ، أو المؤمنينَ، على الخلافِ الحاصلِ في سببِ نزول الآيةِ، فهو مجازٌ مرسَلٌ، بعلاقةِ العموميَّةِ؛ إذْ أُطْلِقَ العامُّ وأُرِيدَ به الخاصُّ.

والمختارُ أنَّ المراد بالعبادِ في الآية هم المؤمنون، كما قال ابن عاشور: "وَالْعِبَادُ الَّذِينَ أُضِيفُوا إِلى ضَمِيرِ الْجَلَالَةِ، هُمُ الْمُؤْمِنُونَ؛

(1) محمّد سعد الدّبل، دليل البلاغة القرآنيّة: 1/.258.
(2) محمد سعد الدّبل، دليل البلاغة القرآنيّة: 1/259.
(3) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 3/176.

لِأَنَّ الْآيَاتِ كُلَّهَا، فِي بَيَانِ أَحْكَامِ الصَّوْمِ وَلَوَازِمِهِ وَجَزَائِهِ، وَهُوَ مِنْ شِعَارِ الْمُسْلِمِينَ، وَكَذَلِكَ اصْطِلَاحُ الْقُرْآنِ غَالِبًا، فِي ذِكْرِ الْعِبَادِ مُضَافًا لِضَمِيرِ الجَلَالَةِ، وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ [الفرقان: 17]، بِمَعْنَى: الْمُشْرِكِينَ، فَاقْتَضَاهُ أَنَّهُ فِي مَقَامِ تَنْدِيمِهِمْ عَلَى اسْتِعْبَادِهِمْ لِلْأَصْنَامِ"[1].

وفي إطلاق العامِّ مرادًا به الخاصُّ في قوله: ﴿عِبَادِى﴾ إشعارٌ بأنَّ أهلَ الإيمان هم الحقيقونَ بشرف العبوديَّةِ لله تعالى، وذلك أنَّ "العبوديّة مقامٌ عظيمٌ، ولو كان للنّبيّ ﷺ اسمٌ أشرف منه وأعظم؛ لسمّاه به، حينما أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، فقال جلّ ذكره: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: 1]، وفي معناه أنشدوا:

يَا قَوْمِ قَلْبِي عِنْدَ زَهْرَاءِ *** يَعْرِفُهُ السَّامِعُ وَالرَّائِي

لَا تَدْعُنِي إِلَّا بِيَا عَبْدَهَا *** فَإِنَّهُ أَشْرَفُ أَسْمَائِي[2]

بَلَاغَةُ الِالْتِفَاتِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿عِبَادِى عَنِّى﴾:

تَوَلِّي اللهِ تَعَالَى الْـجَـوَابَ عَـنْ جَلِيلِ السُّؤَالَاتِ

في قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى﴾ التفاتٌ من الغَيْبَة إلى التَّكلُّم؛ لأنَّه تقدَّم قوله: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ﴾، والاسمُ الظَّاهرِ بمنزلةِ الغائبِ كما هو مقرَّر في علم البلاغة، فجاءَ قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى﴾ خُرُوجًا مِنْ غَائِبٍ إِلَى مُتَكَلِّمٍ[3]، وهو أظهرُ في الجوابِ عن السّؤالِ؛ إذ وقع السُّؤالِ عن الله تعالى، فلو جرى الكلام على مقتضى الظاهر بأن يقال: (وإذا سألك العبادُ عن الله فإنَّه قريبٌ)؛ لربّما توهَّم متوهِّمٌ أنَّ متولِّي الإجابةِ غيرُ الله تعالى، لكن جاء نظمُ الآيةِ بالانتقال إلى ضمير التَّكلُّم ليكون صريحًا في أنَّ الله تعالى هو المتولِّي جوابَ السُّؤالِ، فيكون أوقعَ في القلبِ؛ إذ هو سبحانه أعلم بنفسهِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/179.
(2) الدُّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 1/430.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/205.

بَلَاغَةُ التَّمْثِيلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾:

كَمَالُ عِلْمِ اللهِ بِأَفْعَالِ الْعِبَادِ وَأَقْوَالِهِمْ، وَاطِّلَاعُهُ عَلَى جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ

في قوله تعالى: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ إيجازٌ بالحذف[1]، "وَثَمَّ قَوْلٌ مَحْذُوفٌ، تَقْدِيرُهُ: (فَقُلْ لَهُمْ إِنِّي قَرِيبٌ)؛ لِأَنَّهُ لَا يَتَرَتَّبُ عَلَى الشَّرْطِ القُرْبُ، إِنَّمَا يَتَرَتَّبُ الْإِخْبَارُ عَنِ القُرْبِ"[2]، "وهو تمثيلٌ لكمال علمه، بأفعال العبادِ وأقوالِهم، واطّلاعه على أحوالهم، بحال مَن قَرُبَ مكانُه"[3]، وفيه إيماءٌ إلى سهولة إجابتهِ لمن دعاه، وتحقيق رجاءِ مَن رجاهُ[4]، وهو "توكيد وتقرير لقرب الله من عباده، واطّلاعه على أعمالهم، وعلمه بدعائهم، وتحقيق الوعد بالإجابة لهم"[5].

وأُكِّدَ الخبرُ بـ (إنَّ)؛ لما في الخبر من الغرابةِ؛ وَوَجْهُ الغرابةِ: أن يكون سبحانه قريبًا مع كونهم لا يرونَهُ[6]، ويحتَمِلُ أن يكون التَّأكيدُ للاهتمامِ بمضمونِ الخبَرِ؛ ليكون ذلك حاملًا للعبادِ على دعائهِ ورجائِهِ.

نُكْتَةُ حَذْفِ (قُلْ) فِي الْجَوَابِ:

تَأَدُّبُ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم مَعَ اللهِ تَعَالَى

لمَّا ذكر الله تعالى الأمرَ بإكمال العدَّة، وتكبيره، وشكره في قوله: ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾؛ فإنَّ هذا يبعث في نفوس المتلقِّينَ سؤالًا؛ وهو: هل لنا جزاءٌ على امتثالِ هذه الأوامرِ؟ إلَّا أنَّهم ربَّما أحجَمُوا عن سؤال النَّبيِّ ﷺ عن ذلك تأدُّبًا مع الله تعالى، "فَلِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ﴾ الصَّرِيحُ بِأَنَّ هَذَا سَيَقَعُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، وَاسْتِعْمَالُ مِثْلِ هَذَا الشَّرْطِ مَعَ مَادَّةِ السُّؤَالِ لِقَصْدِ الِاهْتِمَامِ -بِمَا سَيُذْكَرُ بَعْدَهُ- اسْتِعْمَالٌ مَعْرُوفٌ عِنْدَ الْبُلَغَاءِ"[7]، قال ابن عاشور: "وَيُؤَيِّدُ هَذَا تَجْرِيدُ الْجَوَابِ مِنْ كَلِمَةِ

(1) محمد سعد الدّبل، دليل البلاغة القرآنيّة: 1/259.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/205.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/200.
(4) الخازن، لباب التّأويل: 1/115.
(5) محمد سعد الدّبل، دليل البلاغة القرآنيّة: 1/258.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/179.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/178.

(قل) الَّتِي ذُكِرَتْ فِي مَوَاقِعِ السُّؤَالِ مِنَ الْقُرْآن، نَحْو: ﴿۞يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِيَ مَوَٰقِيتُ﴾ [البقرة: 189]، ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ [البقرة: 220]"[1].

وفي حذف (قُل) في هذه الآية نكاتٌ:

لَا وَاسِطَةَ بَيْنَ اللهِ تَعَالَى وَعِبَادِهِ فِي الدُّعَاءِ

أوَّلها: أنَّ العبد محتاجٌ إلى الواسطة في غير أوقات الدُّعاء، أمَّا في مقام الدُّعاءِ فلا واسطةَ بين العبادِ وبين ربِّهم تعالَى.

ثانيها: أنَّ فيها دلالةً على أنَّ العبدَ يرجو ربَّه ويستعينُ به، وأنَّ الرَّبَّ سبحانه قريبٌ من عبده مستجيبٌ دعاءَهُ.[2].

ثالثها: أنّ السُّؤال لـمَّا كان مَفْرُوضًا غَيْرَ وَاقِعٍ مِنْهُمْ بِالْفِعْلِ؛ لَمْ يحسُن أنْ يظهَر فعلُ القول في الجواب، قال ابن عاشور: "وَإِنَّمَا قَالَ تَعَالَى: فَإِنِّي قَرِيبٌ، وَلَمْ يَقُلْ: فَقُلْ لَهُمْ: إِنِّي قَرِيبٌ؛ إِيجَازًا لِظُهُورِهِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى﴾، وَتَنْبِيهًا عَلَى أَنَّ السُّؤَالَ مَفْرُوضٌ غَيْرُ وَاقِعٍ مِنْهُمْ بِالْفِعْلِ"[3].

تَكْرِيمُ اللهِ عِبَادَهُ بِإِجَابَتِهِمْ عَنْ سُؤَالِهِمْ

رابعها: أنَّ في حذف (قل) تكريمًا لهم من اللّه تعالى؛ إذ هو الذي تَوَلَّى جَوَابَهُمْ عَنْ سُؤَالِهِمْ بِنَفْسِهِ بلا واسطة.

شِدَّةُ قُرْبِ الْعِبَادِ مِنْ رَبِّهِمْ فِي مَقَامِ الدُّعَاءِ

خامسها: التَّنْبِيهُ عَلَى شِدَّةِ قُرْبِ الْعَبْدِ مِنْ رَبِّهِ فِي مَقَامِ الدُّعَاءِ؛ إِذْ حُذِفَ فِي اللَّفْظِ مَا يَدُلُّ عَلَى وَسَاطَةِ النَّبِيِّ [4] ﷺ.

دِلَالَةُ اللَّامِ فِي (الدَّاعِ) مِنْ: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾:

شِدَّةُ عِنَايَةِ اللهِ تَعَالَى بِعِبَادِهِ

معنى الإجابة في قوله تعالى: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ القبولُ، أي: أَتَقَبَّل عبادةَ مَن عَبَدَني، وَوَحَّدني، ويصحُّ حملُ الإجابة على القبول، إذا حُمِلَ الدّعاء على معنى العبادة، فإنَّه تعالى لَمَّا سمّى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/178-179.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/264.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/179.
(4) ابن عاشور، المرجع السّابق: 2/179.

العبادة دعاءً؛ سمّى القبول إجابةً؛ ليتجانس اللّفظ، وهو كثيرٌ في كلام العرب[1].

واللّام في ﴿ٱلدَّاعِ﴾ لا يُرادُ بها العهدُ، بل هي للعموم والشمول[2]، فهي في المعنى جمعٌ، أي: أُجيب دعوةَ الدّاعين، إلّا أنّه عُدِلَ عن التّعبير بالجمعِ إلى المفرد؛ للإيماء إلى الاهتمامِ بدعاءِ كلِّ واحدٍ على سبيل الانفرادِ والاستقلالِ.

سَبَبُ فَصْلِ قَوْلِهِ: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ عَمَّا قَبْلَهُ:

قُرْبُ اللهِ تَعَالَى يَقْتَضِي إِجَابَةَ دُعَاءِ الدَّاعِينَ

قول الله تعالى: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ﴾ في موضعِ نصبٍ على الحالِ، والمعنى: فإنِّي قريبٌ مجيبًا دعوةَ الدّاعي[3].

ويجوز أن تكون جملة ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ﴾ مستأنفةً استئنافًا بيانيًّا، وذلك أنَّ قوله تعالى قبلُ: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ يبعث في نفس السّامع سؤالًا عن لازم ذلك؟ فجاء الجواب: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ﴾، فكان قربُ الله تعالى مقتضيًا إجابةَ دعاءِ الدّاعينَ.

دِلَالَةُ الْفَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ﴾:

مَنِ اسْتَجَابَ؛ أُجِيبَ، وَمَنِ الْتَجَأَ إِلَى اللهِ؛ فَلَنْ يَخِيبَ

الفاءُ في قوله: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ﴾ للتّرفيعِ على قوله قبلُ: (أُجِيبُ)، أي: "إذا كنتُ لهم بهذه المنزلة، فحريٌّ أن يستجيبوا لي إذا دعوتهمْ وأن يؤمنوا بي راجين رشدهم"[4].

دِلَالَةُ صِيغَةِ (اسْتَفْعل) فِي قَوْلِهِ ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي﴾:

إِجَابَةُ اللهِ تَعَالَى لِلدَّاعِينَ تَقْتَضِي شُكْرَهُمْ لَهُ بِإِجَابَتِهِمْ لَهُ إِلَى الطَّاعَةِ وَالْإِيمَانِ

قول الله تعالى: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ﴾ معناه: فَلْيَطْلُبوا إجابتي لهم إذا دعوني، وبناءً عليه فيكون (اسْتَفْعل) بمعنى الطَّلَبِ، على ما هو الغالبُ فيها، كقولهم: استغفرْ، واستَعِنْ، ونحوهما.

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 3/593.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/206.
(3) الواحدي، التّفسير البسيط: 3/594.
(4) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/396.

ويحتمِلُ أن يكون قوله: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ﴾ أي: فليُجيبُوا لي إذا دعوتهم إلى الطَّاعة والإيمانِ، كما أنِّي أجيبهم إذا دعوني لقضاء حوائجهم، وبناءً عليه فيكون (استفعِلْ) بمعنى: (أَفْعِلْ)، وهذا الاستعمال كثيرٌ في القرآن الكريم إذا عُدِّيَ باللَّام، كما في قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ﴾ [آل عمران: 195]، وقوله سبحانه: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ﴾ [الأنبياء: 90]، وجاء بهذا المعنى معدًّى بنفسِهِ في كلام العرب، كما قال الشّاعر:

وَدَاعٍ دَعَا يَا مَنْ يُجِيبُ إِلَى النَّدى *** فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عِنْدَ ذَاكَ مُجِيبُ[1]

نُكْتَةُ الْعُدُولِ عَنِ الْفِعْلِ (فَلْيُجِيبُواْ) إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي﴾:

عَظِيمُ فَضْلِ اللهِ تَعَالَى حَيْثُ أَمَرَ الْعِبَادَ بِالْقَلِيلِ، وَيُجَازِيهِمْ عَلَيْهِ بِالْجَلِيلِ

وجاء النَّظم القرآنيُّ ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي﴾، دون: (فَلْيُجِيبُواْ)، وذلك أنّ حقيقة الاستجابة: طلب الإجابة، وإن كان قد يستعمل بمعنى الإجابة، فبيّن الله تعالى أنّ العبادَ مَتَى مَا تحرّوا إجابته بقدر وُسعهم؛ فإنّه يَرْضَى عَنْهُم[2]، ففيه إيماءٌ إلى عظيم فضل الله تعالى على العبادِ؛ حيث لم يُكلِّفهم إلّا القليلَ، ولكنَّه يثيبهم على ذلك الجليل الجزيلَ.

سِرُّ عَطْفِ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي﴾:

شَـرَفُ الْإِيـمَـانِ بِاللهِ تَعَالَى

عَطفُ الإيمان على الاستجابةِ في قوله تعالى: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي﴾ من عطف الخاصِّ على العامِّ؛ لأنَّ الاستجابةَ تكون بامتثال أمر الله تعالى، ومن أعظم المأمورات: الإيمانُ به تعالى، فيكون عطفُ الأمرِ بالإيمانِ على الأمر بالاستجابةِ من عطف الخاصِّ على العامِّ؛ اهتمامًا بالفردِ الخاصِّ وبيانًا لشريفِ منزلَتِهِ وعَظَمَتِهَا[3].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/209، والبيت لكعب الغنويّ، يُنظر: السّيرافي، كتاب شرح أبيات سيبويه: 2/241.
(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/396.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/180.

دِلَالَةُ الْأَمْرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلْيُؤْمِنُواْ بِي﴾:

المُتَّصِفُ بِأَصْلِ الإِيمَانِ لَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ اسْتَكْمَلَ مَعَالِمَهُ وَتَحَقَّقَ بِهَا

والأمر بالإيمانِ في قوله تعالى: ﴿وَلْيُؤْمِنُواْ بِي﴾ لا يُرادُ به إنشاءُ الإيمانِ؛ لأنَّ آيات الصِّيام مصدَّرة بما يقتضي إيمانَهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾، وإنَّما الأمرُ خرجَ عن أصلِهِ إلى إرادةِ الدَّوامِ والاستمرارِ[1].

ويحتملُ أن يكون المرادُ الأمرَ بالازْدِيَادِ مِنَ الإيمانِ؛ وذلك أنَّ أفرادَ الإيمان كثيرةٌ، فالمتَّصِفُ بأصلِ الإيمان لا يدلُّ على أنَّه استكملَ أفرادَهُ وتحقَّقَ بها.

وقول الله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ بعد الأمر بالإيمان؛ لأنَّهُ لَمَّا شُبِّهَ الْإِيمَانُ بِالطَّرِيقِ الْمَسْلُوكِ فِي الْقُرْآنِ؛ "نَاسَبَ ذِكْرُ الرَّشَادِ، وَهُوَ: الْهِدَايَةُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: 6]، وقال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: 52]، وقال: ﴿وَهَدَيْنَـٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الصافات: 118]"[2].

حُسْنُ الخِتَامِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾:

المُسْتَجِيبُونَ للهِ تَعَالَى المُؤْمِنُونَ بِهِ هُمْ عَلَى رَجَاءٍ مِنْ حُصُولِ الرُّشْدِ لَهُمْ

قَوْلُه تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ أي: ليكونُوا على رجاء من إصابة الرّشد[3]، فهو من التّرجي المتضمّن معنى الدّعاء للعباد بالرّشد[4]، "وَالْمَعْنَى: أَنَّهُمْ إِذَا اسْتَجَابُواْ للهِ وَآمَنُوا بِهِ، كَانُوا عَلَى رَجَاءٍ مِنْ حُصُولِ الرُّشْدِ لَهُمْ"[5].

وفيه إشارة إلى كونهم راجين إصابةَ الرُّشْد، أي: الحقّ، ولَمَّا أمرهم الله تعالى بصوم الشّهر وإكمال عدَّتِهِ، وحثَّهم على التّكبير؛ "عقّب بهذه الآيةِ العطرة؛ لتدلّ في بلاغة وبيان على علم الله

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/209.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/210.
(3) الواحديّ، التّفسير البسيط: 3/595.
(4) محمد سعد الدّبل، دليل البلاغة القرآنيّة: 1/259.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/209-210.

بأحوالهم، وسماعه لأقوالهم، وإجابته لدعائهم، ومجازاته على أعمالهم، ممّا يؤكّد أهميّة الرّشد، ودلالة الحثّ عليه"[1].

وختم الآية برجاء الرُّشْدِ من بدائع الخَتْم؛ وذلك أنَّ الله تعالى لـمَّا أمر العبادَ بالاستجابةِ لَه والإيمان به؛ نبَّههم على أنَّ هذا الأمر لا يُرادُ به إلَّا نفعُ العبادِ أنفسِهم؛ وذلك بوصولهم إلى الرَّشادِ، فلا تنفعه سبحانه طاعة الطَّائعين، كما لا تضرُّهُ معصية العاصين[2].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/201.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/210.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث، سورة البقرة من الآية 181 إلى الآية 247
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة البقرة من الآية 181 إلى الآية 247 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 3 ، 800 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-54-5
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 3 : سورة البقرة من الآية 181 إلى الآية 247.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-54-5
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1789539 بتاريخ 2023/03/10م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»